مهر الشاعر

بقلم الأستاذ محمود بك خيرت

خطر لنا أن نهجر المقاهى والمجالس العامة التى لا فائدة منها وأن نجتمع فى بيوتنا بالتناوب ، فكنا عند كل مساء نقطع فيها الوقت سامرين إلى منتصف الليل أو إلى ما بعده ونحن نعرض لمختلف الموضوعات من سياسة أو أدب أو تاريخ أو قصص أوغير ذلك

ولقد جرّنا الحديث ذات ليلة إلى الأسماء التى يختارها الآباء لأطفالهم وإلى غرابتها فى بعض الأحيان وإلى الدوافع التى تحملهم على اختيارها دون سواها وقد تكون لاعتبارات مضى زمنها ، أو لآمال مستقبلة يرجون تحققها . فتراهم يطلقون على طفلهم اسم « الغالى » بعد أن كاد العقم يجرعهم فى سبيله كؤوس الأسى ، أو اسم « ست الدار » على أمل أن تكون الطفلة يوما ما زينة أهلها وسيدة بيتها ، أو « أبو الغيط » لعل هذا الطفل يعطف عليه الحظ فيصبح فيما بعد مزارعاً موفقاً

وهكذا أخذنا نستعرض كثيراً من الأسماء من صلاح الدين إلى أبو القمصان إلى فارس إلى غصن فوردة ، وإلى غير ذلك من هذا النوع الذى لا ينتهى . وعند ذلك صاح أحدنا : ألا ترون يا رفاقى أن اسم « سنبلة » اسم جليل المعنى حلو فى السمع ، مع أن أحداً على ما أعلم لم يفكر فى اختياره إلى الآن؟ ولكن آخر أجابه بأنه سبق التسمية به وإن له عنده لقصة طريفة رويتها له احدى قريباته وكانت صديقة لصاحبة هذا الاسم

* * *

ظلت زمناً غير قصير ووجهها مسندٌ إلى زجاج النافذة وما كان هناك ما يلفت النظر أو تقع عليه العين ، وقد أخذ الرذاذ يتساقط فى الطريق خيوطاً على هيئة حبات صغيرة من الملح ، وهى تنقر ذلك الزجاج نقراً متواصلاً والضباب الكثيف يرتفع شيئاً فشيئاً فى الفضاء فتختفى فيه صور الأشجار والبيوت والأفق فلم يكن هناك في الجانب المقابل للنافذة إلا الطبيعة الجامدة المتضائلة كساها الشتاء ثوباً قاتماً من الحزن

ولكن نظراتها كانت ضالّة زائغة ، فكأنها تنظر أمامها إلى شىء وهى لا تنظر فى الحقيقة إلى شىء ، وإنما كانت تفكّر فيما يتردد على خاطرها من الذكريات وقد ملكت عليها صوابها وحواسها حتى أنها لم تسمع طرق بابها ؛ فاضطرت ابنة عمى إلى الدخول فألفتها على تلك الصورة مستغرقة فى خيالاتها وأحلامها ، فما أذهلها أمرها وهى تعلمها أديبة وشاعرة رقيقة تحب الطبيعة وتعشق جمالها ، فلا بد أن منظر هذا الرذاذ المتساقط وذلك الضباب المنتشر أخذ

بلبها والطبيعة دائماً جميلة فتانة مهما تعاقبت الأيام والفصول

وكانت الفتاة قد انتبهت فالتفتت إلى خلفها ووجهها ينم عن الحزن والتفكير حتى ارتاعت ابنة عمي وسألتها عن أمرها ، فأجابتها في بساطة أن لا شيء ... وهو جواب كان يحمل في طيّاته أثر ما كان يشغل بالها ، وما كان إلا جواب هؤلاء الذين حياتهم أشبه بأفق ذلك الشتاء تتلاشى شيئاً فشيئاً في ضباب الأيام الضائعة وهي تمر على حالة واحدة لا جديد فيها

وكان التعب قد نال منها فارتمت فوق مقعد قريب وهي ترد جوابها السابق : لا شيء ، لا شيء

— وهذا الشحوب وهذا التفكير البادیان على وجهك يا سنبلة ؟

— قد يكون ذلك لرداءة الجو ، ألا ترين ؟

(مشيرة إلى النافذة)

في الربيع يصعد ماء الحياة المبتسمة إلى أجسامنا نحن أغصان الحياة فنشعر كأننا نولد من جديد ونسيم الآمال العذبة يهز أعطافنا ويغرس الابتسامات في شفاهنا فتتفتح عن قُبل الحب الهنيئة كما تتفتح أكمام الورد العطر اليانع

وفي الربيع تمتد الأغصان وتنمو الأوراق وسواء كانت من المتسلقات أو مما يلبث مكانه فانها تملأ الفضاء بهاء وبهجة ، وتكسو الأرض خضرة ونضرة ، وقد رقت السماء وطاب الجو ، فلا نشعر عنده بحاجة إلى ذلك الفرو الذي نلف أعناقنا به عند الشتاء وقد غمرتنا النشوة وجرى في دمنا النشاط وارتسم على ملامحنا البشر ، وصفت بشرتنا فاستغنت عن ذلك الجمال الصوري الذي نطلبه عند الأصباغ والأعطار

أما في الشتاء ...

وعند ذلك قاطعتها صديقتها قائلة :

أما الشتاء فقد أطريته من قبل كما أطريت فصل الربيع الآن . ألم تقولي إنه الصاحب الرقيق الذي نخطب وده ونجد قلوبنا دفأها عنده ، وأنه الذي يهيء لنا سبيل الأحلام الناعمة ونحن من حول الموقد نصطلي ناره ونتناول الأقاصيص ننصت إليها كما تنصت الطفلة الصغيرة إلى ما تقصه عليها جدتها حتى يغلب جفنيها النعاس ؟

— الحقيقة أن لأمزجتنا أقفالاً مفاتيحها الفصول

— بل قولي إنك بحاجة إلى الحب حاجة الغصن الظمآن إلى ارتشاف الماء

— وما ذا عساه أن يفيد مع من عصفت بها الأقدار فما عاد يشغل رأسها خاطر ولا قلبها حب ، ولم يعد خلفها ماض ولا أمامها مجال لأمل ؟ لقد أصبحت يستوي في عينيّ الشتاء والربيع والضحك والبكاء وقد آليت أن أعيش وحدي مع نفسي أتذوق طعم العزلة فيها وإن كانت عزلة قاسية مريرة حتى أن الدقائق لتمر من حياتي دون أن أشعر بها

* * *

أما أبو سنبلة فكان رجلا فقيراً لا يملك في قليوب إلا بضعة أفدنة ضئيلة الايراد ، ولكنه كان مزارعاً نشيطاً قوي الارادة يفيض قلبه دائماً بالأمل ، فأخذ يجد ويقتصد حتى أصبح من أعيان ذلك البندر . فلما بسط الله له في الرزق وهيأ له أسباب السعادة

انتقل إلى القاهرة بعد أن اقتنى بها أنفر العبارات وشيد لسكناه هذا القصر الأنيق وهو يطل على حديقة قصر يملكه صديق له من الصفر ، وكان لهذا الصديق ولد فى سن سنبلة وسيم القسمات لطيف الحديث جم الحياء تخرج فى الجامعة المصرية بعد أن نال إجازتها فى فن الأدب ، فاقترح أبوه على جاره أن يزوجه من ابنته ، ولكنها استمهلت أباها فى لطف بحجة أنها لا تزال صغيرة ، وأن من يريده لها لا يزال فتى قليل التجربة

وكانت العادة فى مثل هذا الحال أن يتبادل أقارب الطرفين صورتى الخاطب والمخطوبة ، حتى إذا وقع كل منهما من قلب الآخر وتهيأت الأسباب لإبرام الزواج ساغ لهما التزاور والاختلاط . وهكذا ظلت صورة سنبلة عند خاطبها وصورته عندها

ولقد كان شديد الولع بها ففعل فيه رفضها ما يفعله السهم النافذ حتى غلبه الحزن وامتد إلى جسمه السقم . وكثيراً ما كان الأطباء يعودونه فلا يجدون لمرضه سبباً ظاهراً ، ولذلك كانوا يشيرون عليه بالرياضة والأسفار وارتياد الرياض والمتنزهات حتى أنه كان كثير الجلوس فى جوسق بالحديقة تطل عليه شرفة فى ذلك القصر الذى دفن آماله فيه

وكانت مجلات الأدب فى ذلك العهد كثيرة تنشر على قرائها ما يرسله إليها الكتاب والشعراء من وحى خيالهم وسحر بيانهم ، وكل منهم يضع اسمه على ما يكتب إلا واحداً كان يقتصر على كلمتى « شاعر مجهول » وكان شعره يتناول كل لون من ألوان الحياة وبخاصة الحب وما يتصل به من مآسى المحبين . وكان القراء يشعرون بما فى هذا الشعر من السهولة والقوة وحلاوة الأسلوب ، حتى أصبح هذا الشاعر المجهول معلوماً عند جميع الناس لا تخلو أحاديثهم في مجتمعاتهم من ذكره ، وكلهم يتمنى لو أنه يكشف عن اسمه وعن مكانه فيملأون عيونهم منه بعد أن استهواهم وسحرهم بشعره

وكانت سنبلة قد انتبهت إلى ما تنقله المجلات عن هذا الشاعر ، فكانت إذا حضر بها ساعى البريد تسرع إلى فهارسها فإذا وقع بصرها على الشاعر المجهول قلبت صحفها لتعثر على ما ينشره على الناس من جديد ، حتى إذا ما انتهت من قراءته استرخت على مقعدها وقد دبت فى مفاصلها النشوة

ولقد أخذ هذا الشعر يغتصب كل يوم شيئاً من فراغ قلبها حتى استولى عليه وهى تقول : لا يقول مثل هذا الشعر إلا قلب عذبه الحب ، فمن هى السعيدة التى ظفرت منه بهذا الثناء المنظوم ؟ بل من هى تلك الفاسية التى لا تجزي إحسانه إليها بإحسان منها ، وهى تبتعد حين يتقرّب ، وتصد عند ما يترضى ؟ ثم تقول : ليتنى كنت أنا بيت القصيد من شعره فأباهى وأتيه على أجمل الفتيات ، ثم تبكى

وكثيراً ما دفعها الشوق إلى معرفته فسألت أصحاب تلك المجلات عنه ولكنهم أجابوها بأنهم هم أيضاً يجهلون من هو

* * *

— إنك يا سنبلة فى أوج شبابك وحسنك كالثمرة اليانعة الناضجة لا تنتظر إلا اليد السعيدة التى تمتد لتقطفها فلم لا تفكرين فى الزواج ؟

— فكرت فيه ولكننى لم أتزوج من شاب

متقلب تغربني ساعات نشوته الأولى ثم ينفض عني

— ما أخطأت ؛ فإن أخطر مايكون مثل هذا الزواج الذى لا يقوم إلا على مجرد المتعة ، فإذا ما خمدت نار تلك النشوة الأولى راح يبحث له عن متعة أخرى ترفع ما تراكم من رماد نزقه فوق تلك النار . وليس على مثل هذا الأساس المضطرب يستقيم الزواج وتصان الأسر

— ولا أرى كذلك أن أتزوج من أى شاب وإن كان جميلاً

— إذن فأنت تريدين أن تتزوجى من غنى ؟

— ولا هذا أيضاً فإن أبى وافر الغنى على ما تعلمين . ولكنى ...

وكانت صديقتها تعلم مبلغ ولعها بما تقرأه فى المجلات من مقطوعات الشاعر المجهول فصاحت بها :

— أتراك تحدثين نفسك بالزواج من هذا الشاعر . إذن فأنت تجرين وراء الخيال يا سنبلة

— ولم ؟ أليس بموجود ؟

— بلى ولكنك لا تعرفين من هو ولا أين يقيم

— ومن يدرى ؟ ربما أصل إلى الاهتداء إليه يوماً ما .

— ربما . ولكن ماذا يكون من أمرك لو أنك وجدته عند ذلك دميماً أو طاعناً فى السن ؟

— إعلمى ياصديقتى أن مثل هذا الشاعر كمثل النور الساطع ، فهل تستطيع عيناك أن تحدق فيه حتى تهتدى إلى شىء من عيوبه ؟ ومع ذلك فإن لهؤلاء الشعراء أرواحاً صافية لطيفة تحول بين عيوننا وبين ما نحصيه عليهم من العيوب . أما أنه لا يكون كفئي فى السن فهذا ما لا أحفل به ، لأن قلب الرجل دائما فى سن العشرين ، وهذا القلب هو الذى سأحتله ؛ وحسبي أنه فتى صهرته نار الحب فأوحت إلى خياله بهذا الشعر السماوي الذى غمر نفسي واحتل قلبي وتغلغل فى خواطرى وأحلامى ودمى .

وكانت هذه الصديقة موفدة فى الحقيقة من قِبل والد الخاطب وقد فكر فى أن صلتها بسنبلة وقد بدأت من الصغر فى المدرسة كفيلة بإلانتها واسترضائها ولذلك عادت تسألها :

— وما هو يا سنبلة عيب هذا الشاب الذى طلب أبوه يدك له ؟ إنى لأراه فتى فى شرخ الشباب بهى الطلعة مليح القامة وهو فوق ذلك متعلم وأبوه غنى ، وهو صديق لأبيك

ولكن سنبلة لزمت الصمت ، وأخذت تنظر إليها من طرف خفى كأنها تتكشف ما دفع بها إلى هذا السعى . فلما ألحت عليها صاحت فيها: أبداً ؛ أبداً لن يكون إلا ما أردت . وإذا كان أبى أو أبوه هما اللذين وسطاك بينه وبيني فحسبك أنك وقفت على أمرى ، ولك من الآن أن تصرحى لهما به . ومع هذا ...

وعند ذلك قصدت فى عنف إلى درج المكتب وأخرجت منه صورة ذلك الفتى ثم اندفعت إلى باب الشرفة المطلة على الحديقة ، وكان جالساً تحتها فمزقتها ثم ألقت بأجزائها إليه قبل أن تدركها صديقتها ...

* * *

ولقد كان هذا الفتى يعيش إلى تلك اللحظة على الأمل . فلما قذفت سنبلة فى وجهه برسمه على تلك

الخشنة الزرية أدرك أن هذا الخيط الباقي قد انقطع وأن الاستمرار في التعلق بها بعد ذلك إنما هو ضرب من الجنون . ولكن أنى لقلبه أن يقنع بذلك وقد أصبح ملكاً لها ؟ وكان جلوسه في الحديقة في ذلك الفصل القارس مما ساعد على تغلغل الداء فيه ، فاختفى عن الحديقة من ذلك اليوم ولزم فراشه ، وقد أخذ الأطباء يعودونه إلا طبيباً واحداً هو الذي كان أقدرهم على شفائه : « وداوني بالتي كانت هي الداء »

أما سنبلة فما كانت من يوم ذلك الحادث تأبه له أو تفكر فيه لأن كل خواطرها كانت منصرفة إلى شاعرها ، ولكنه انقطع عن نشر مقطوعاته من ذلك اليوم مما حيرها وأطار لبها ، وهي تظن الظنون وتحسبه مريضاً أو على سفر ، أو أنه ظفر بتلك التي كانت رسول إلهامه ووحيه ...

وكانت صديقتها ، بالرغم مما صدمتها به على ما سبق ، تزورها من وقت لآخر ، ولكنها تحاشت أن تشتبك معها في حديث يتعلق بابن الجار أو بذلك الشاعر ، إلا أنها كانت حيرى لما كانت تراه على وجه سنبلة من دلائل الحزن والذبول ، وهي تقول في نفسها : لعلها تأثرت بمرض ذلك الشاب ، وأنها الآن نادمة على ما فرط نحوه منها

وبينما هما كذلك دق الجرس ، فأسرعت سنبلة إلى تلقف أعداد المجلات الجديدة من خادمتها ووضعتها على المكتب ، ثم أخذت تتصفحها عدداً عدداً ولكنها لم تجد فيها شيئاً جديداً ، فتغير لونها وكاد ينهمر الدمع الذي كتمته في مآقيها .

على أنها لمحت فوق المكتب شيئاً ملفوفاً كان مع المجلات ، فلما رفعت الغلاف عنه وجدته صورتها التي كانت عند ذلك الشاب يردها إليها ، وقد قطع كل أمل منها ، وكاد الأسى يقضي عليه بسببها . ولكنها رأت بظهرها هذين البيتين :

يا طلعة الشمس هل تدرين كيف قضى
على هناء حياتي ردكِ القاسي
حسبي على أيّ حالٍ ما قضيتِ به
فالشمسُ تشرق من بعدٍ على الناس

الشاعر المجهول

وما كادت تقع عيناها على توقيعه حتى انهمر سيل الدمع من عينيها وارتمت عند صدر صديقتها وهي تردد في صوت مختنق خافت : إنه هو . إنه هو . ثم اندفعت إلى داره وكان على آخر رمق

* * *

ولم تمض أيام على ذلك حتى فكر الجاران في إبرام الزواج وأخذا يتكلمان في معداته وفي المهر الذي يقدَّم له . ولكنها اقتربت من حبيبها وقالت له في دلال : إنّ لي عندك — أيها الشاعر الذي عذّبني وكان بعيداً عني وهو قريب مني — مهراً من نوع آخر . ففهم غرضها وأخرج من جيبه ورقة مطوية ناولها إياها ضمنها هذا الشعر :

أطلّت فقالوا إنها البدر مُسفر
وهلت فقالوا ها هو الغصن يخطر
ولا البدر يحكي وجهها في صفائه
ولا الغصن يحكي قدّها فهي تسخر
تبارك باريها فكم هو مبدع
يصوغ من الحسن الظبا ويصورّ

ومن عجب إعراضها وهى خلسةً
تحدّق من طرفٍ خفى وتنظر
فشكّكنى فيها وفيه سيوفُه
وإنّ فقار الظبي أدنى وأيسر
فنبّهت عينى أن تغضّ لتتّقى
مضاربه واللحظ كالسّيف أبتر
وحذّرت قلبى أن يميل مع الهوى
وما بعده إلا الأسى والتحسر
فما سمّا مسّنى فقابي معذّب
بهجرانها والعين بالدمع تهمُر
وبينهما نفسٌ تناجى شفيقةٌ
لقد صحّ ما قد كنتُ أخشى وأحذر
وكم قائلٍ ما بعد شكواك والبكا
وما بعدَ جفنٍ فى دجى الليل يسهر
أما آن أن تنسى فتسلو كما سلَت
وتصبر لكن كيف أسلو وأصبر
ولم تستبن أمرى إذا كنتُ عنده
بريئاً فتُغضى أو مُسيئاً فتغفر
ألم يكفها سهدى وسقمي وأدمعى
وفى بعض هذا إن تشأ ما يكفّر
وفى ليلةٍ طالت علىّ وعُوّدى
تملّكهم ممّا أعانى التأثّر
تذكّرتها والجوُّ صاف وريحه
كأنفاسها والليل نشوان مُقمر
إذا بى أراها بيننا فكأنما
تمثّل لى فى الحلم ما كنت أذكر
وكانت وقد ألقت على القوم نظرة
ثناها الحَيا تمشى الهوينا وتعثُر
وجسّت يدى قد راعها ما أصابنى
فصاحت بماذا أنت بالله تشعُر
ومن عجب دائى بها وهى أصله
وتسألنى عن علّتى وهى أخبر
فلما خلت من عوّدى الدارُ أجهشت
ومدمعها باللؤلؤ الرطب يحدِر
تقول رعاك الله ما أنت واجدٌ
من النّار فى جنبىّ منه وأكثر
ولكن تجاهلت الذى كان بينهمْ
لكى يجهلوا ما بيننا فهو أستر
ومالت على صدرى وهمت إلى فمى
وكم قبلة فيها الدواء المبشر

محمود غنيمت

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

فى حوالى ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربى منذ نشأته إلى اليوم

فى صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب